الخلود

حدّث الباحث بن النصر قال التقيتُ فُرَص الزمان في مدينة طهران فدخلتها ولا دليل لي الاّ فضلَ علمائها ونُبلَ امرائها . وكنت قد راسلت جماعة فيها من كبار الانام منذ اربعة عشر من الاعوام فاجتمعتُ بهم في احد النوادي واستدللْتُ عليهم بفضلهم البادي ولما استقرّ بنا المقام تبادلنا شعائر الوداد ودار البحث على الخلود والمعاد وآراء علماء المغرب فيها وما كُشف لهم من الادلّة عليها . وكان يصحبني شيخ من علماء المغرب قرأ الفلسفة في بلاد الالمان وتخرّج في كتب كنت وليبنتز وسبنسر وغيرهم من علماء الزمان فلم نخُضْ عباب البحث حتّى ظهر انهُ ابن بجدتها وحامي حقيقتها فشخصَت اليهِ الابصار . واخذ يقصّ علينا حديثًا اغلى من النضار

قال يا كرام فارس وفضلاء ايران لقد تاه حكماؤنا في مهامهِ البحث والتنقيب ينشدون نفس الانسان ليهتدوا الى حقيقتها ويعلموا مبدأها ومعادها فكانت خائفة المطاف انهم وصلوا الى حيث ابتدأ فيلسوفكم الاكبر وحكيمكم الامهر الشيخ الرئيس ابن سينا حيث قال

هَبَطَتْ اليكَ من المحلِّ الأرفعِ ... وَرْقاء ذات تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مُقلةِ عارفٍ ... وهيَ الّتي سَفَرَتْ ولم تتبرْقَعِ
وَصَلَتْ على كرهٍ اليكَ ورُبَّما ... كَرِهَتْ فِراقَكَ فهيَ ذاتُ توجُّعِ
اِلِفَتْ وما اَلِفَتْ فلمّا واصلتْ ... أَلِفَتْ مجاورةَ الخرابِ البَلْقَعِ
حَتّى اذا قَرُبَ المسيرُ الى الحمى ... ودنا الرحيلُ الى الفضاء الاوسعِ
وغدت مفارقةَ لكلِّ مخلّفٍ ... فيها خلافَ التُّرب غير مشيّعِ
هجمَتْ وقد كُشفَ الغطاءُ فابصرت ... ما ليس يُدْرَكُ بالعيونِ الهجَّعِ
وهي الّتي قطع الزمانُ طريقها ... حَتّى لقد غرَبت بغير المطلعِ
فكانها بَرْقٌ تألّقَ بالحمى ... ثمّ انطوى فكأنهُ لم يلمعِ

وما اوقفني وقفة المنذهل المبهوت ان اكثر الحكماء بحثوا عما يصير اليهِ الانسان بعد الممات وقلّ من بحث منهم عمّا كان عليهِ قبل الولادة . مع ان المسئلة الاولى مرتبطة بالثانية ارتباطًا لا انفكاك لهُ لانهُ اذا كان الموت لا يوصل الموجود الى العدم فالولادة لا توجدهُ من العدم . واذا كانت نفس الانسان خالدةً فالارجح انها سرمديّة

ايضًا لابداية لها ولا نهاية . اما وقد سألتموني رأيي علماء هذا الزمان في الخلود والمعاد فهاكم ما حضرني الآن من هذا البيان مقدمًا الكلام على حقيقة النفس والعقل لان حلّ العقدة فيهما ومرجع البحث اليهما فاقول

ان في كيفيّة وجود الموجودات مذهبين شهيرين الاوّل انها وجدت كلها كما نراها بطريق الاعجوبة والثاني انها خاضعة لناموس الارتقاء ومشتقّ بعضها من بعض تبعًا لهذا الناموس . والثاني هو المذهب العلمي الذي قامت عليهِ الادلة المحسوسة وفيهِ كلامنا الآن . ولا يخفى انهُ اذا قامت ادلة اخرى تثبت المذهب الاوّل وتنفي الثاني لزمنا رفض الثاني واتباع الاوّل وصار هو المذهب العلمي . وشأننا في ذلك شأن قاضٍ حكم ان الملك لزيد لا لعمرو لبيّنات اقامها زيدٌ ولم يقمها عمرو ثم ان عمرًا نقض بينات زيدٍ واقام بينات اخرى على انّ الملك لهُ فنقض الحكم الاوّل وحكم بالملك لعمرو والقاضي في كل ذلك متّبع جادّة العدل والانصاف

والذي علمناهُ حتى الآن من طبيعة الموجودات انها تُنقسم الى قسمين مادّة وقوّة وان نظام الكون جارٍ على اتمّ درجات الاقتصاد فلا يضيع شيءٌ من المادّة ولا من القوّة ولا يُزاد عليها شيءٌ . ومعلوم ان الانسان يتكوّن من نطفة تفتذي وتكبر من دم الامّ اوّلاً ثم من الطعام الى ان تصير انسانًا كاملاً فموارد جسم الانسان ظاهرة حتى يمكن تتبُّع عناصرهِ واحدًا واحدًا بخلاف موارد نفسهِ فانها غير ظاهرة ولكنّ الناموس المتقدم ذكرهُ وهو ناموس حفظ الموجودات وعدم تلاشيها وعدم وجودها من لا شيء يقضي بان النفس التي وُجدت في زيد قد وصلت اليهِ من جهة ما

ويحسن بنا قبل الخوض في هذا الموضوع ان نلتفت الى اصل الحياة فان النطفة الاولى التي يتكوّن الانسان منها تكون حيّة وحياتها متّصلة اليها من الوالدين وكذلك حياة كلٍّ من الوالدين مشتقة من حياة والديهِ وهلمّ جرًّا . والاستقراء يصل بنا الى اوّل حيٍّ وجِدَ على وجه البسيطة وهناك نقف عند حدّ الاحياء الاولى ولا نجد الآن صلةً بينها وبين الجماد فنحكم بان الحيّ لا يتكون الاّ من حيٍّ آخر (١)

ولا مشاحة في انهُ يوجد الآن فصل تامٌّ بين الجماد والحي ولكن هذا الفصل غير شاسع كما يتوهّم البعض بل كأنّ الموجودات الحيّة وغير الحيّة سلسلة كثيرة الحلقات ضاعت

(١) هذا هو المذهب المعوّل عليهِ مع ان الاستقراء الذي اثبتهُ ناقص جدًّا وقد اوضحنا ادلة القائلين بهِ في ما كتبناهُ على التولد الذاتي في السنين الاولى من المقتطف

طلقة او اكثر من طلقها وبقي قسماها يدلاّن على ما كان بينهما من الاتصال . او ضفّتا نهرٍ ترى صخورها واحافيرها متماثلة كل التماثل فتحكم لاوّل وهلة انهما كانتا متصلتين ثم جرى النهر وفصلها وجرف الصلة من بينهما . واعلى طبقات الجماد وهي البلورات واوطأ طبقات الحي متشابهة متماثلة من وجوهٍ شتّى لا محل لاستيفائها في هذا المقام . الاّ ان البلورات لم تزل تتوالد من نفسها واما الاحياء فلا تتولد الآن من نفسها في ما نعلم وسبب ذلك على ما يُظَن ان المعدات اللازمة للبلور لم تزل موجودة في الارض واما المعدّات اللازمة للحياة فقد زالت منها لان شؤون الارض قد اختلفت كثيرًا في الحر والبرد والضغط عمّا كانت عليهِ في العصور الاولى التي ظهرت فيها مبادئ الحياة

وفي الجماد كل ما تستدعيهِ الحياة[1] فان دقائقهُ متحركة على الدوام وفيهِ مبدأ الحس وهو الذي سمّاهُ الاستاذ كلفرد بمادة العقل .[2] ويذهب البعض الى ان مادّة العقل هذه تكون على ابسطها في ابسط المخلوقات الحيّة فاذا ماتت تلك المخلوقات وانحلّت عناصر ابدانها انحلّت ايضًا مادة عقلها ثم اذا ارتقى الحيّ وكثرت مطالبهُ تركبت مادتهُ العقليّة لكي تقوم بتلك المطالب . فاذا مات بدنهُ وانحلّ فقد لا تحل مادة العقل التي كانت فيهِ الى بسائطها بل تدخل بدن حيّ آخر كما ان بدن الحيّ يدخل بدن حي آخر طعامًا لهُ . ألا ترى ان النبات يغتذي بعناصر الجماد البسيطة واما الحيوان فيغتذي بالمواد المركبة التي ركبها النبات من عناصر الجماد فعلى هذه الصورة تدخل مادة العقل في الحيوان مركبة لا بسيطة وكلما ارتقت مادة الجسم الحي ارتقت مادة العقل ايضًا الى ان تصير تشعر بافعال نفسها اي تصير الى ما يسمّى بالوجدان وهناك مبدأ النفس الناطقة[4]

ومهما تكن حقيقة النفس فلا خلاف في ان مركزها او مركز العقل في الدماغ وان العقول تختلف باختلاف الادمغة شكلاً وبناء فعقل نيوتن لا يوجد في دماغ رجل

---

(١) هذا مذهب اكثر العلماء الطبيعيين وقد وافقهم عليهِ بعض علماء الديانة المسيحية فقالوا ان في المادة من الخواص ما يجعلها تحيا من نفسها اذا ناسبها الاحوال انظر كتاب تميل في العلاقات بين الدين والعلم الصفحة ١٩٨

(٢) قد ذكر الاستاذ كلفرد هذا المذهب في جريدة العقل سنة ١٨٧٨ ولكنهُ مات قبل ان يثبتهُ بالادلة الكافية وقبل ان يبين كل ما ينبغي عليهِ من النتائج . وقال امهُ وجد اثرًا لهُ في كتب كتبت وونت وقال بيرسن ان لهُ اثرًا ايضًا في كتب سبنوزا وشوبنهور وهربرت سبنسر

(٤) هذا رأي نوردن بيرسن . وذهب الدكتور مودسلي في كتابهِ الجسد والعقل الى ان في الاجسام الآلية قوة تقاوم قوة الانحلال الطبيعية ولو بعد انفصال الحياة عنها

من متوحشي افريقية وعقول الشعوب التي توارثت التعليم والتهذيب قرونًا كثيرة اسمى من عقول الشعوب الغائصة في بحار الهمجيَّة لان ادمغة الشعوب الاولى قد ارتقت اكثر من ادمغة الشعوب الأُخرى. ولا عبرة بما نراهُ احيانًا من بلادة اولاد العقلاء لان جوهر العقل قد يعرض له ما يحول دون ظهوره او يُظهرهُ على صورة مخالفة لصورتهِ الحقيقيَّة كما ترى في الفحم وهو اشد المواد سوادًا فانهُ اذا تركب مع الاكسجين والهيدروجين على صورة معلومة صار سكرًا ابيض اللون حلو الطعم فاذا اضفت اليهِ قليلاً من الحامض الكبريتيك عاد اسود فاحمًا كما كان

ومفاد هذا المذهب الفلسفي العلمي ان النفس ارتقت في المخلوقات رويدًا رويدًا كما ارتقت اجسام النبات والحيوان الى ان بلغت اسماها في اسمى طوائف الناس. وبهِ يُعلَّل وجود شيء من النفس او العقل في الحيوانات القريبة من الانسان كالفرد والكلب والفرس. فانهُ اذا فرضنا ان النفس مختصة بالانسان لزمنا القول بان ما يبدو في هذه الحيوانات من القوى المشابهة لقوانا العقليَّة يُعدَم من الكون بموتها وذلك مناقض لناموس حفظ القوة وعدم التلاشي. او ينتقل الى حيوانات اخرى من نوعها وذلك يستلزم بقاء انواع الحيوان ثابتة على حالها والشواهد عديدة على ان انواعًا كثيرة انقرضت وانواعًا اخرى وُجدت ولم تكن موجودة فلا مناص من القول بان ما فيها من المادَّة العقليَّة يرتقي رويدًا رويدًا بحسب ناموس الارتقاء العام وينتقل منها الى غيرها

وهناك قضيَّة أُخرى تُحَلُّ بهذا المذهب ولا تحلُّ بغيرهِ وهي وجود المسوخ البشريَّة المشابهة للحيوانات فقد رأى بعضهم (٥) ابنة تشبه الضأن في شكل رأسها وهي تأكل النبات ولا تأكل اللحوم وتعبِّر عن فرحها وحزنها بلفظة با ما يع وتحاول نطح الناس برأسها وظهرها وحواجبها مغطاة بصوف طوله نحو اصبع. واغرب منها ابنة أُخرى تشبه الوزة فان رأسها صغيرٌ عليهِ قليل من الشعر وعيناها جاحظتان وفكها الاسفل بارز نحو ثلاثة سنتيمترات عن فكها الاعلى وشكل القسم الاسفل من وجهها مثل شكل منقار الوزة ورقبتها طويلة جدًّا حتى تستطيع ان تلوي رأسها وتضعهُ على ظهرها ولم تكن تتكلم بل كانت تئنُّ وتصوت كالوزة وترف يديها كانهما جناحان. وهذه الحوادث وامثالها لا تعلِّل بناموس الرجعة الذي ذكرهُ داروِن لان الانسان لم يمرَّ في ارتقائهِ على طوائف الغنم والوز بل هذه

(٥) انظر خطب الدكتور مورسلي في العقل والجسد صفحة ٤٧ — ٥٣

وُجدت فيها الخواص المذكورة بعد لاشتقائها من الشجرة الاصليَّة التي تنزَّع منها نوع الانسان على مذهب اهل التشوء واما اذا كانت مادَّة عقل الانسان مأخوذة من مادة العقل العموميَّة فلا يندر ان يوجد فيها شيءٌ من مادة عقول الحيوانات ويبقى على صنفهِ الاصليَّة

ويستفاد مما تقدَّم ان المادَّة العقليَّة توجد في الاحياء الدنيا على ابسط درجاتها حتى في املاك النبات وكريان الحيوان[٦] وكلما ارتقى الحي زادت فيهِ تركُّبًا الى ان تبلغ درجة العقل في الانسان وانها تنفصل عن الجسد عند موتهِ وتبقى وحدها الى ان تدخل جسدًا آخر وليس في الارض حيٌّ ارقى من الانسان ليتناول نفس الانسان بعد موتهِ ولكنَّ الكرة الارضية اصغر كرات الكون وفيهِ ما لا يُعد ولا يحصى من الاجرام السموية وكلٌّ منها اكبر من ارضنا بما لا يقدَّر وليس ثمة ما يمنع انتقال النفوس من كرة الى أُخرى وان كنا غير عارفين الآن كيفيَّة هذا الانتقال . فليس ما يمنع انتقال نفس الانسان الى الكرات السموية

وقد تقدَّم ان جميع الكائنات الارضيَّة متدرِّجة في الارتقاء بحيث تتكوَّن منها سلسلة متصلة الاَّ حلقة الانسان فانها منفصلة عن الحلقة التي تحتها بحلقة او حلقات مفقودة من الارض فاما ان نفوس الحيوانات العليا تتركَّب بعد انفصالها عن اجسادها حتَّى تكون نفس الانسان من زبدتها او ان نفس الانسان جاءت الكرة الارضيَّة من كرة أُخرى سموية وهناك توجد الحلقات المفقودة التي بين نوع الانسان وطوائف الحيوانات الارضيَّة

ومعلوم ان نفوسنا لا تشعر وهي في اجسادنا الاَّ بواسطة المجموع العصبي فاذا فارقت الجسد وفارقت المجموع العصبي لم تعد تشعر بالعالم الخارجي كما تشعر بهِ وهي ضمن الجسد ولكنَّ هذا لا ينفي ان النفوس يؤثر بعضها ببعض بدون توسُّط الجسد ولا ينفي ان النفس المجرَّدة عن الجسد تؤثر بالنفوس التي ضمن الاجساد . واذا صح ذلك وليس لدينا دليل قاطع على صحتهِ ولا على فسادهِ سهل علينا تعليل حوادث كثيرة ما تكاد

---

(٦) راجع ما كتبناهُ عن حركات النبات في المجلد السادس من المقتطف وقد ابان الاستاذ بلران النبات يتحرك في نموهِ بحسب المؤثرات الخارجية تحرُّك الحشرات وابان الشهير داروين ان املاك النبات الحساسة تفعل مثل دماغ الحيوان . وامر النباتات المفترسة مشهور وقد اسهبنا الكلام فيهِ قبلاً . وقال رومانس ان التمييز بين المؤثرات الذي هو جرثومة العقل موجود على ابسط درجاتهِ حتى في الكائنات المؤلفة من كريَّة واحدة . انظر كتابهُ في ارتقاء الحيوانات العقلي

تثبت صحته ولا تعلم علته من تأثير الاموات بالاحياء والناس بعضهم ببعض على مسافات شاسعة

وهنا تعترض امامنا مسئلة ذات بال وهي هل تنتقل النفس من عالم الى آخر بكل ملابساتها من نحو المحبة والبغضة والكرم والبخل والصبر والضجر. والجواب ان هذه الملابسات عرضيَّة ناتجة عن علاقات الانسان بما حوله فلا يتطرانها ترافق النفس بعد انفصالها عن هذه العلاقات فاما انها لا ترافقها بالكليَّة او تتغيَّر تغيرًا كثيرًا بتغير علاقات النفس الاَّ اذا كانت علاقاتها الجديدة مثل القديمة وهذا بعيد جدًّا. وعليه فالنفس التي تفارق الجسد تجرَّد عن هذه الملابسات الارضيَّة وتتصل بها ملابسات اخرى اسمى منها فتترقى بواسطتها رويدًا رويدًا الى ان تبلغ اعلى درجات الكمال

هذا تاريخ موجز لنفس الانسان من قبل الولادة الى ما بعد الممات على ما يذهب اليه جماعة من علماء هذا الزمان. وعماد مذهبهم شمول ناموس الارتقاء وعدم تلاشي شيء من الموجودات. وعندهم ان ذلك اي خضوع الموجودات كلها ماديَّة كانت او عقليَّة لنواميس ثابتة لا تتغير أليق بعظمة الباري سبحانه وتعالى من مذهب القائلين بانه خلق هذا الكون على غير ما يريد وهو كل يوم يزيد فيه وينقص منه ويغيِّر ويبدِّل شأن الانسان المتقلب الذي لا يستطيع ان يسن ناموسًا ثابتًا من اول الامر

هذا في اعتقادي اشهر مذهب من مذاهب العلماء في الخلود وعندهم مذهب آخر مبني على مبدإ الاتصال وقد فصَّلته في غير هذا المكان[1] واثبتُّ فيه ان الخلود يستحيل في هذه الاجرام المنظورة لانها ستعود الى الحالة السديميَّة التي نشأت منها ولا تعود صالحة للحياة ولذلك تفر النفس الخالدة في عالم آخر غير منظور. ولا يخفى ان المذهب الاوَّل والثاني وكل المذاهب التي من نوعها لا تخرج عن كونها ترجيحات قابلة للنقض والابرام بحسب تقدم المعارف واستنارة العقل بنور المباحث الحديثة وفوق كل ذي علم عليم

قال الباحث فلما اتمَّ الشيخ كلامه شكرته الجماعة على ما افاهم به من الآراء وطلبوا اليه ان يستطرد الكلام الى اللاتناهي والعالم غير المنظور الذي قدَّر فيه الخلود فوعدهم بالانجاز اذا فسح الله له في الاجل وودَّع الجماعة وهو يقول ما اضيق العيش لو فسحة الامل

(١) في مقالات متوالية في المجلد العاشر موضوعها فتاوي العلماء في الخلود والفناء